التســـــامح الإســـــلامي

بين النظرية والتطبيق

أ.وليد عبد الماجد كساب(*)

تمهيد :

التســـامح قيمة إسلامية رفيعة ، دعا إليها القرآن الكريم والسنة النــبوية المطهـــرة، وكان الرسول ﷺ مثالاً عملياً وتطبيقياً لهذا الخلق النبـــيل، حيث جاءت حياته مليئة بالمواقف المشهودة التي وقف التاريخ أمامها مكبراً ومسجلاً لها بحروف نورانية مشرقة.

وقد كان للتسامح أثره البالغ في الحضارة الإسلامية حين تعامل المســـلمون بـــه كواجـــب ديني تحتمه الشريعة؛ ففتحت كثير من البلاد بمساعدة أهلها أنفسهم؛ ودخل آخرون في دين الله افواجاً جراء التسامح والمعاملة الحسنة الطيبة التي رأوها من المسلمين.

إن الـــتاريخ ليحفل بكثير من المواقف التي تبرز جوهر الإسلام الناصـــع مـــنذ عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين، ثم الخلافات الإسلامية المتعاقـــبة علـــى حكم البلاد والعباد، وهذا ما حدا بالمنصفين من غير المســـلمين أن يسجلوا شهاداتهم حول سماحة الإسلام مؤكدين على تلك الحقيقة التي تميز بها الإسلام فسعد بها العالم كثيراً.

لقد كفل الإسلام للإنسان حقوقه دون النظر إلى عقيدته، قبل أن يعـــرف العالم ما يسمى " بالليبرالية " أو " منظمات حقوق الإنسان "،

(*) باحث بالأمانة العامة لرابطة الجامعات الإسلامية .

وقبل أن تدعو الولايات المتحدة الأمريكية إلى كتابها أو " الديمقراطية " التي يسهر الخلق جراها ويختصمون.

وليس غريباً أن ينشغل المسلمون في شتى بقاع المعمورة بالحديث عن التسامح الإسلامي وعلاقة الإسلام بالآخر، خاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر التي جاءت لتضع المسلمين وحدهم – ودون غيرهم – في قفص الاتهام، ولم لا ؟! فقد أصبح الإسلام هدفاً يسعى الغرب لوأده والقضاء عليه، وأضحى العدو التقليدي الأول بعد أن تهاوت الشيوعية فكانت نسياً منسياً.

ومما يؤسف له أن الهجوم السافر الذي يتعرض له المسلمون قد أفقدهم كثيراً من توازنهم؛ فالحكومات الإسلامية تعروها هزة عنيفة لمجرد ذكر كلمة " الجهاد " بل إن ذلك يعد سبباً كافياً لمعاقبة كل من يدعو إلى الجهاد بأية وسيلة، سواء أكانت مشروعة أم غير مشروعة، وكثير من علماء الدين يختزلون تعاليم الدين ومقاصد الشريعة في مفهوم التسامح وقبول الآخر، تحت مظلة " تطوير الخطاب الديني " متغافلين عن كثير من حقائق هذا الدين الخاتم، وأصبح " الخنوع " و " الهوان " هو اللغة الرسمية عند الحديث عن الإسلام، ففي الوقت الذي ينتهك فيه ستر المسلمين في العراق وفلسطين وأفغانستان وغيرها من بلاد الإسلام؛ نجد من يحدثنا عن " التسامح " و " العفو " مع أن الإسلام قد أمر أهله بالأخذ بأسباب القوة والمنعة حتى يتمكنوا من الدفاع عن دينهم وعقيدتهم، ويستطيعوا أداء شعائرهم.

ومن عجب أن يشار إلى المسلمين بأصابع الاتهام دون غيرهم، وكأن الإرهاب وترويع الآمنين صناعة إسلامية، وجزء لا ينفصل من

الديــن الإســلامي، في الوقت الذي يغفل فيه جانب الإرهاب الغربي- الأمريكـــي قديمـــاً وحديثاً، وعندما وقعت الأحداث الدامية الأخيرة في أســبانيا ســارعت تلك القوى إلى إلصاقها بالمسلمين بالرغم من وجود العديــد مــن الحركات الانفصالية الإرهابية التي تمتلأ بها الساحة في أسبانيا وعلى رأسها حركة " إيتا " الانفصالية .

إن الإعــلام العالمي الذي يملك بنو صهيون ناصيته ويمتطون صــهوة جــواده يقــرن بين الإسلام والقتل وسفك الدماء؛ أما الهندوس والصــرب فليســوا إرهابيين؛ وأما مذابح البروتستانت والكاثوليك في أيرلندا، والألوية الحمراء في إيطاليا، فهذا ليس إرهاباً.

لقــد أثبتــت الأحداث المتلاحقة التي ضربت الكثير من أرجاء العالم أن الإرهاب لغة عالمية لا تقتصر على قطر دون قطر، أو جماعة دون أخرى، كما لا يمكن حصرها في نطاق ضيق أو حيز محدود، لذا فمــن الجــور أن يقصر الإرهاب على المسلمين، وكل العالم يعاني من سكرات الإرهاب.

إن خروج ثلة من أهل الإسلام على روح الإسلام التي دعا إليها ديــنهم لا يعنـــي أن الإسلام يدعو إلى الإرهاب؛ ولا يمكن أن يحسب هؤلاء على الدين، فلكل قاعدة شواذ، وإن كان الأمر كذلك فلماذا لا يقال عــن المســيحية واليهودية مثل ذلك، بالرغم من الأعمال الوحشية التي يقوم بها بعض المنتمين لهما، وهل يعيب المنهج سوء التطبيق ؟! بالطبع لا !! إنما العيب فيمن يطبقون المنهج.

لقد أصبح لزاماً على المسلمين أن يعيدوا ترتيب أوراقهم في هذا الوقــت الذي تدعو فيه كل أمة إلى كتابها؛ فالإسلام مستهدف من القوى

المعاديـــة التـــي لا ترقـــب في مؤمن إلّا ولا ذمة، وصدق الشيخ محمد الغزالي يرحمه الله : " لقد مضت عليهم أربعة عشر قرناً، وهم يفترون علـــى الإسلام الكذب ويضعون أمام دعاته السدود، وّيعملون في رقاب أهلـــه السـيف إذا أســعفتهم القوة، وينسجون لهم الدسائس إذا أعجزهم الضعف ... فماذا جنوا بعد هذا كله ؟ لا الإسلام مات .. ولا قرآنه باد .. ولا أمته هلكت".

وفـــي هـــذه الدراسة المتواضعة نتحدث عن التسامح كسمة من ســـمات الحضـــارة الإســـلامية، وكقيمة من القيم العالية التي دعا إليها الإســـلام، مسترشدين في ذلك بما أنزله المولى عز وجل في كتابه وبما أثـــر عـــن النبـــي ﷺ وصـــحابته الكرام رضوان الله تعالى عليهم، ثم بشهادات غير المسلمين حول سماحة ذلك الدين الحق.

والله ندعو أن يهدينا سواء السبيل

الفصل الأول

التسامح فى المنظور القرآنى

"السماحة" فى اللغة :

السـماحة فى اللغة تعنى التساهل والتيسير، فقد جاء فى مختار الصحاح "السماح والسماحة: الجود، سمح به سماحاً وسماحة: ، وسمح له: أعطاه"[1]، "وسمح" سموحاً وسماحاً وسماحة: جاد وأعطى، أو وافق علـى ما أريد منه ، وامرأة سمحة وقوم سمحاء ونساء سماح، وسامحه بكـذا: أعطـاء وتسامح وتسمح، وأصله الاتساع ومنه يقال: فى الحق مسمح أى متسع ومندوحة عن الباطل .."[2].

التسامح بين اليهودية والمسيحية :

لم تكن الدعوة إلى التسامح بدعاً ابتدعه الإسلام حين جاء الرسول ﷺ بالرسالة الخاتمة، وإنما دعت إليه الرسالات السابقة، فقد وردت فى التوراة نصوص كثيرة تحث اليهود على السماحة واليسر مثل: "افتح يديك لأخيك المسلم والفقير فى أرضك" وأيضاً ذلك التوجيه "لا تظلموا الأرملة ولا اليتيم ولا الغريب ولا الفقير".

ولكن اليهود لم يستمعوا لما جاءهم من الحق كعادتهم أن يقولوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة:٩٣]، بل تمادوا فى غيهم فحرفوا التوراة،

---

(١) أبو بكر الرازى: مختار الصحاح ص ٣٢٠ (بتصرف)، ط دار الحديث، ب. ت.

(٢) الفيومى: المصباح المنير ص ١٠٩ (بتصرف)، ط مكتبة لبنان.

ووضعوا بها من التعاليم الفاسدة الكثير والكثير فقالوا: "لا تُقرض أخاك بربا، أما الأجنبى فأقرضه بربا"(٣).

أما عن المسيحية فقد ورد فى الإنجيل: "من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر"، وفى رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية: "فإن جاع عدوك فأطعمه، وإن عطش فاسقه، لأنك إن فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه، لا يغلبنك الشر، بل اغلب الشر بالخير"(٤).

وقد بينت المسيحية أجر التسامح ومثوبته مع الآخرين يقول المسيح عليه السلام، طوبى للرحماء، لأنهم يرحمون(٥)، وقد عُرف المسيح عليه السلام بسماحته التى فاقت كل الحدود البشرية.

الإيمان بالرسالات السابقة :

نادى القرآن الكريم المسلمين باحترام أصحاب الرسالات الأخرى والإيمان برسلها، وجعل ذلك واجباً، بل وشرطا من شروط الإيمان قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ ومَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٦].

قال ابن كثير "أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أُنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصَّلاً، وما أنزل على الأنبياء

---

(٣) محمد عطية الإبراشى: عظمة الرسول ص:٣، ط مكتبة الأسرة ٢٠٠٢م.

(٤) محمد عطية الإبراشى: الإسلام دين الإنسانية، ط مكتبة مصر سنة ١٩٨١م.

(٥) المرجع السابق.

المتقدمين مجملاً، وقد نص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم"(٦).

ويقول القرطبى "كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل"(٧).

وفى موضع آخر يقول تعالى داعياً إلى الإيمان بكل الرسل دون أدنى تفرقه بينهم ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. قال ابن كثير "فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره ولا رب سواه ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء لا يفرقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نسخ الجميع بشرع محمد ﷺ"(٨).

يقول تعالى مخاطباً المسلمين: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [العنبكوت:٤٦].

قال مجاهد ﴿إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ يعنى أهل الحرب ومن امتنع منهم عن أداء الجزية، وقوله تعالى ﴿وَقُولُوا آمَنَّا﴾ يعنى إذا

---

(٦) الحافظ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (١/١٨٧)، دار التراث العربى للنشروالتوزيع.

(٧)القرطبى: الجامع لأحكام القرآن (١/٦٣١)، ط دار الغد العربى.

(٨) ابن كثير: مرجع سابق (١/٣٤٢).

أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه لا تُقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقاً، ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلاً، ولكن نؤمن به مجملاً معلقاً على شرط وهو أن يكون منزلاً ولا مبدلاً ولا مؤولاً"(٩).

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز "فما الإسلام بالنسبة إلى الرسالات السابقة إلا متمماً لها ومكملاً لها، فإذا أخذنا كلمة الإسلام بمعناها القرآنى نجد أن الإسلام فى لغة القرآن ليس اسماً لدين خاص وإنما هو اسم للدين المشترك الذى هتفت به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء هكذا نرى نوحاً يقول لقومه ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢]، ويعقوب يوصى بنيه ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾[البقرة:١٢٣]، وأبناء يعقوب يجيبون أباهم ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[البقرة: ١٣٣].

وموسى يقول لقومه ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤]، والحواريون يقولون لعيسى ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٥٢]، بل إن فريقاً من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن ﴿قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص:٥٣].

وبالجملة نرى اسم الإسلام عاماً يدور فى القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر الإسلام، ثم نراه بعد أن يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم ينظمهم فى سلك واحد ويجعل منهم

---

(٩) ابن كثير: (٤١٦/٣).

جميعاً أمة واحدة لها إله واحد، كما لها شريعة واحدة[10] ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِي﴾ [الأنبياء:٩٢].

وحسب تعبير الشيخ محمد الغزالى – رحمه الله تعالى – فقد كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة، ولبنات متراكمة فى بينان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع، وكانت مهمة اللبنة الأخيرة أنها أكملت البنيان، وملأت ما بقى فيه من فراغ، وأنها فى الوقت نفسه كانت بمثابة حجر الزاوية الذى يمسك أركان البناء، وصدق الله حين وصف خاتم أنبيائه بأنه ﴿جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:٣٧].

وحين وصف اليوم الآخير من أيامه بأنه كان إتماماً للنعمة وإكمالاً للدين ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة:٣] وصدق رسول الله ﷺ حين صور الرسالات السماوية فى جملتها أحسن تصوير حيث يقول: "إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"[11].

إنها إذن سياسة حكيمة لتربية البشرية تربية تدريجية لا طفرة منها ولا ثغرة، ولا توقف فيها ولا رجعة، ولا تناقض ولا تعارض[12].

---

(١٠) نقلاً عن الشيخ محمد الغزالى : التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ص ٦٧ -٦٨ بتصرف.

(١١) رواه البخارى فى كتاب المناقب، باب خاتم النبيين.

(١٢) راجع: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام مرجع سابق ص ٧٣ (بتصرف)، دار نيضة مصر – الطبعة الثانية ٢٠٠٠م.

كفل الإسلام الحنيف حرية العقيدة لغير المسلمين، وأمنهم على نفوسهم وأموالهم وأعراضهم، وأعطاهم ما للمسلمين من حقوق، بل وأعفاهم من بعض الواجبات، وجاءت الآيات فى هذا الشأن كثيرة، يقول تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنْ الغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦]. "أى لا تُكرهوا أحداً على الدخول فى دين الإسلام، فإنه بين واضح جلى دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحداً على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته ودخل فيه على بينه"(١٣).

وليس من أهداف الإسلام أن يفرض نفسه على الناس فرضاً حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة، فنبى الإسلام هو أول من يعرف أن كل محاولة لفرض ديانة عالمية وحيدة هى محاولة فاشلة، بل هى مقاومة لسنة الوجود ومعاندة لإرادة رب الوجود ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:١١٨]، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[يونس:٩٩]، ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦].

ومن هنا نشأت القاعدة الإسلامية المحكمة والمبرمة فى القرآن فى قاعدة حرية العقيدة "لا إكراه فى الدين" ومن هنا رسم القرآن أسلوب

---

(١٣) ابن كثير: مرجع سابق (١/٣٠).

الدعوة ومنهاجها فجعلها دعوة بالحجة والنصيحة فى رفق ولين ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، على أن الإسلام لا يكتفى منا بهذا الموقف السلمى السلبى، وهو عدم إكراه الناس على الدخول فيه، بل يتقدم بنا إلى الأمام فيرسم لنا خطوات إيجابية يكرم بها الإنسانية فى شخص المسلمين[١٤].

المجادلة بالتى هى أحسن :

أمر الله سبحانه وتعالى رسوله وعباده المؤمنين بالإحسان فى معاملة أهل الكتاب، ومجادلتهم بالتى هى أحسن ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥].

قال ابن جرير "وهو ما أنزل عليه من الكتاب والسنة والموعظة بالحسنة، أى بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى، "وجادلهم بالتى هى أحسن" أى من احتاج فيهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب كقوله تعالى: ﴿وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦]. فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر به موسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:٤٤].

حسن قتال المشركين :

---

(١٤) الشيخ محمد الغزالى : مرجع سابق ص ٧٦.

ومن سماحة القرآن دعوته إلى قتال المشركين دون الاعتداء على الحرمات بغير حق قال تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩١].

ولقد رأينا المسلمين لم يحاربوا إلا ليصدوا الاعتداء عليهم وعلى دولتهم وعقيدتهم، ووجدانهم لم يستلوا سيوفهم إلا عند اليأس من مسالمة الأعداء، ولم يتجاوزوا فى حربهم حد الدفاع والترهيب إلى الانتقام الحاقد، كما فعل الغرب مع المسلمين فى أسبانيا وفى البلقان، وكما يفعل الأمريكان والبريطانيون ومن على شاكلتهم بالمسلمين فى العراق وغيره من بلاد الإسلام.

والمسلمون يجنحون إلى السلم إذا ما جنح لها الأعداء، ولا يخربون العمران، ولا يهدمون الكنائس، ولا يرغمون أحداً على الدخول فى الدين، وليس أدل على ذلك من أن الإسلام قد ذاع فى مكة، وكان النبى ﷺ وأتباعه قلة لا يملكون من القوة ما يردون به عن أنفسهم الأذى والعدوان، ثم استمر ينتشر بقوته الذاتية فى كل عصر حتى فى العصور التى ضعف فيها المسلمون.

كان ذلك عرضاً موجزاً لبعض التوجيهات القرآنية التى تدعو إلى التسامح مع أهل الكتاب والكفار، وبلا شك فهى بعض من كل؛ فالقرآن الكريم مليء بالتوجهات الربانية التى تدعو إلى هذا الخلق القويم.

الفصل الثانى

صور من سماحة النبى ﷺ وخلفائه الراشدين

سماحة الإسلام مع أهله :

دعا الإسلام إلى السماحة كفضيلة من الفضائل التى شرعت للتيسير على الخلائق ورفع الحرج عنهم، يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

وقد نهى المولى عز وجل عن التشدد والرهبانية التى تقيد النفس بقيود شديدة الوثاق، كما كانت المسيحية عند ظهور الإسلام، وعاب على أهل الكتاب تشددهم فى العبادات فقال عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧].

والتيسير على الناس ورفع الحرج عنهم أمر رئيس ومعتبر فى الشريعة الإسلامية، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك فى مواضع عدة، منها قوله سبحانه: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

ومن مظاهر السماحة فى العبادات إسقاط فريضة الحج عمن لا يستطيع أداءها، يقول تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا﴾ [آل عمران:٩٧].وقد أقر الرسول الكريم ﷺ دعوة القرآن للتسامح والتيسير فى العبادات، لما لذلك من مردود إيجابى على الحياة الإنسانية بشتى جوانبها، فقد ورد عنه ﷺ أنه قال: "لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم، فتلك

بقاياهم فى الصوامع والديارات" ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحديد:٢٧].

وفى توجيه نبوى آخر يشير ﷺ إلى ضرورة التيسير فى كل الأمور، يقول ﷺ: "إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة"[١٥].

وتبدو سماحة الإسلام بجلاء فى الرخص التى أعطاها الشارع سبحانه وتعالى للناس لرفع الحرج عنهم، والرخصة هى ما شرعه الله من الأحكام للتخفيف عن المكلفين فى الأصول غير العادية، أى الأحكام الاستثنائية التى شرعت لوجود عذر شاق يمنع المكلف من الالتزام بالحكم الأصلى، ولا تطبق إلا فى أحوال خاصة، كرخصة الفطر للمسافر والمريض فى شهر رمضان، لما فى الصوم مع السفر أو المرض من المشقة الشديدة والضيق الزائد، وأيضاً رخصة أكل الميتة أو شرب الخمر لمن أشرف على الهلاك من شدة الجوع أو العطش ولم يجد إلا ميتة أو الخمر للمحافظة على حياته.

إذن فقد قرر القرآن قاعدة مهمة هى قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، فالأصل فى التشريع هو التيسير وهو المقصد الأسمى للشريعة الإسلامية الغراء.

وكان الرسول ﷺ أعظم أسوة فى سماحة النفس، ولين الطبع، وسهولة المعاملة ، وكمال الخلق فكان بأخلاقه صلوات الله صاحب

---

(١٥) رواه البخارى.

دعوة عملية للتحلى بهذا الخلق، وبسائر فضائل الأخلاق ومحامد السلوك، ولم يكن صلوات الله عليه نكداً ولا صعباً ولا فظاً ولا غليظاً، ولذلك أثنى الله عليه بالرقة ولين الجانب ولطف الحديث، إذ نفى عنه الفظاظة وغلظ القلب، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]، أى لست يا محمد فظاً فى أقوالك ومخاطباتك للناس، ولا غليظ القلب عديم الرقة واللطف والرحمة فى واقع حالك الخلقى، وليس من شأنك ولا من شأن أى داع يدعو إلى الله أن يكون فظاً أو غليظاً لأن هذين منفردان يجعلان الناس ينفضون من حول الداعى إلى الله"(١٦).

تسامحه مع غير المسلمين :

ومن كمال سماحته ﷺ تسامحه مع غير المسلمين استجابة لأمر الله سبحانه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة:٦].

يقول الدكتور دراز "فأنت تراه لا يكتفى منا بأن نجير هؤلاء المشركين ونؤويهم ونكفل لهم الأمن فى جوارنا فحسب، ولا يكتفى منا بأن نرشدهم إلى الحق ونهديهم طريق الخير وكفى؛ بل يأمرنا بأن نكفل لهم كذلك الرحمة – الحماية والرعاية فى انتقالهم حتى يصلوا إلى المكان الذى يأمنون فيه كل غائلة، ثم هل ترى أعدل وأرحم وأحرص على وحدة الأمة وتماسكها من تلك القاعدة الإسلامية التى لا تكفل لغير المسلمين فى بلاد الإسلام حرية عقائدهم أو عوائدهم وحماية أشخاصهم

---

(١٦) الميدانى: الأخلاق الإسلامية وأسسها (٤٦٢/٢) دار القلم ط٥ – ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

وأموالهم وأعراضهم، بل تمنحهم من الحرية والحماية، ومن العدل والرحمة قدر ما تمنحه للمسلمين من حقوق العامة "لهم ما لنا وعليهم ما علينا" هل ترى أوسع أفقاً وأرحب صدراً، وأسبق إلى الكرم، وأقرب إلى تحقيق السلام الدولى والنقاش السلمى بين الأمم، من تلك الدعوة القرآنية التى لا تكتفى فى تحديد العلاقة بين الأمم الإسلامية وبين الأمم التى لا تدين بدينها ولا تتحاكم إلى قوانينها"(١٧).

لقد بلغت السماحة برسول الله مبلغاً عظيماً فكما كان سمحاً فى حياته كان كذلك سمحاً فى حروبه مع أعدائه، فكانت هذه التعاليم والأوامر لأصحابه المحاربين لا تخريب ولا تدمير، ولا تعرض لغير المقاتلين من الأطفال والنساء والرهبان ولا تشويه ولا تمثيل بجثث القتلى.

أخرج مسلم عن سليمان بن بريرة عن أبيه رضى الله عنهما قال "كان رسول الله إذا أمرّ أميراً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال "اغزوا باسم الله فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله" اغزوا ولا تغلوا (أى لا تأخذوا شيئاً من غنائم الحرب قبل قسمتها) ولا تغدروا ولا تمثلوا (لا تشوهوا القتيل بتقطيع بعض أجزائه على سبيل الانتقام والتشفى) ولا تقتلوا وليداً)(١٨).

هكذا كانت سماحة الرسول فى حروبه بل نجده يغضب غضباً لم يغضب مثله قط لقتل امرأة فى إحدى المعارك، فقد روى الإمام البخارى

---

(١٧) الشيخ محمد الغزالى مرجع سابق ص٧٧.

(١٨) رواه مسلم فى كتاب الجهاد والسير – باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها.

عن الليث عن نافع أن عبد الله رضى الله عنه أخبره "أن امرأة وجدت فى بعض مغازى النبى مقتولة، فأنكر رسول الله قتل النساء والصبيان"[١٩].

وكذلك نهى رسول الله عن قتل المعاهد بغير جرم، فعن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله: "من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً"[٢٠].

وتتجلى سماحة النبى ﷺ فى أعظم صورها فى صلح الحديبية حين اشترطت قريش على النبى شروطاً قاسية، منها: من جاء من عند المسلمين إلى قريش لا ترده قريش، ومن جاء إلى المسلمين بغير إذن وليه رده المسلمون، وقبل النبى ﷺ شرطهم الجائر لحكمة رأها وغضب بعض الصحابة للشرط، وما كادوا ينتهون من توقيع المعاهدة حتى جاء أول امتحان للوفاء، إذ وصل مسلم من مكة اسمه أبو جندل بن سهل فاراً من أذى قومه، وألح على الرسول فى أن ينضم إلي المسلمين؛ لكن الرسول رده وفاء بعهده، فقال أبو جندل: إنهم سيعذبوننى؛ فقال له الرسول: "اصبر واحتسب؛ فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً" إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم"[٢١].

---

(١٩) رواه البخارى كتاب الجهاد والسير باب قتل الصبيان فى الحرب.

(٢٠) رواه البخارى كتاب الجزية - باب من قتل معاهداً بغير جرم.

(٢١) انظر: سيرة ابن هشام (٣/٣٦٧) ت- طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية.

وإن سماحة الرسول لتتجلى فى أعظم صورها حتى فى الموقف المهتاج الذى تجنح فيه النفوس إلى الانتقام، فقد كانت الأمم تعامل أسراها معاملة العدو البغيض، فتقتلهم أو تبيعهم أو تسترقهم، أما الرسول فقد عامل أسرى بدر معاملة حسنة ذلك بأنه وزع الأسارى السبعين على أصحابه وأمرهم أن يحسنوا إليهم، فكانوا يفضلونهم على أنفسهم فى الطعام، وهكذا أرسى النبي ﷺ هذه القواعد الإنسانية فى معاملة الأسرى وذلك قبل أن يعرف العالم هيئة الأمم ومجلس الأمن، وغيرها.

وكذلك حين دخل النبى مكة يوم الفتح قادراً قال لقريش "ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم فقال اذهبوا فأنتم الطلقاء، لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين".

وصدق الله إذ يقول: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فأعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر﴾ [آل عمران١٥٩].

نماذج

من سماحة الخلفاء الراشدين (رضى الله عنهم)

كان أبو بكر الصديق – وهو الخليفة الأول للنبى ﷺ يقتفى أثر النبى ﷺ فى تعامله مع غير المسلمين سواء من المشركين أم من أهل الكتاب، فيروى أنه رضي الله عنه عندما أرسل الجيوش إلى الشام أمر عليهم يزيد بن أبى سفيان، وقال له: إنى موصيك بعشر خلال: لا تقتل أرملة ، ولا صبياً ، ولا كبيراً هرماً ولا تقطع شجراً مثمراً، ولا تخربن عامراً، ولا تعقرن شاة، ولا بعيراً إلا لمأكلة، ولا تغرقن نخلاً، ولا تحرقنه، ولا تغلل ولا تجبن"[٢٢].

وسار الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه على نفس الدرب الذى سار عليه أبو بكر الصديق فى الإحسان إلى أهل الكتاب والمشركين تأسياً بالنبى ﷺ، فقد روى عنه أنه أرسل رسالة إلى المجاهدين يوصيهم فيها بالضعفاء وعدم الاعتداء على حرمات الآخرين فقال" بسم الله، وبالله، وعلى عون الله، امضوا بتأييد الله، وما النصر إلا من عند الله، فقاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، ولا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمثلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هرماً ولا أرملة ولا وليداً، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وعند شن الغارات"[٢٣].

---

(٢٢) السيوطى: تاريخ الخلفاء/ ٩٧.

(٢٣) أبو يوسف الخراج بتصرف.

وكان رضى الله عنه حريصاً على رعايا الإسلام على اختلاف عقائدهم ، فقد روى أنه رأى عجوزاً يسأل الناس، فعلم أنه يهودى، فقال له ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أُسأل الجزية، والحاجة والسن، فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله وأكرمه، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال له: انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، وأمر فرفعت عنه الجزية وعن أمثاله وأوصى له براتب من بيت مال المسلمين.

وحدث أن ابن عمرو بن العاص – والى مصر – ضرب قبطياً، فاشتكاه القبطى لعمرو بن الخطاب فبعث عمر إلى عمرو وابنه فاستقدمهما من مصر إلى المدينة، وأمر القبطى أن يقتص من ابن عمرو فضربه كما ضربه، ولما أخذ القبطى بحقه قال له عمر: اضرب أباه على صلعته ، فتعجب القبطى من ذلك قائلاً: قد أخذت بحقى ممن ضربنى ، فقال عمر: بل اضربه. فوالله ما ضربك إلا بسلطان أبيه .. إنها عظمة الإسلام التى لا تدانيها عظمة، وعدله الذى لا يضارعه عدل.. فأى نظام هذا الذى يعطى أحد الرعية حقه فى القصاص من رئيس الدولة بهذا الشكل الذى رأيناه، فأى ديموقراطية تلك التى يتشدق بها الغرب، ويسهر الخلق جراها ويختصموا، وهل تقاس بهذه العظمة .. تلك إذن قسمة ضيزى.

كما كان رضى الله تعالى عنه حريصاً على أن يمارس أهل الكتاب طقوسهم فى أماكن عبادتهم، ولما دخل إلى كنيسة بيت المقدس

وحان موعد الصلاة خرج فصلى على السلم، فسئل عن ذلك؛ فقال: خشيت أن أصلى داخلها فيتخذها المسلمون مسجداً بعد ذلك[٢٤].

ولم يكن على بن أبى طالب ليحيد عن طريق رسول الله ﷺ ولا عن طريق أصحابه – رضوان الله تعالى عليهم – فقد ورد أنه كتب إلى الأشتر النخعى خطاباً يوصيه فيه بأهل أحد البلاد المفتوحة يقول فيه "إن عقدت بينك وبينى عدو عقداً، أو ألبسته منك ذمة، فحط عبدك بالوفاء، وأرح ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنة دونما أعطيت؛ فإنه ليس من فرائض الله شئ الناس أشد اجتماعاً عليه مع تفرق أهوائهم من تعظيم الوفاء بالعهود، فلا تغدرن بذمتك، ولا تخيسن بعهدك"[٢٥].

وفى رسالة أخرى يبعث بها إلى واليه نجده – كرم الله وجهه – يرسم له طريقة التعامل مع رعايا الدولة الإسلامية، فيحذره من إساءة معاملتهم ، ويوصيه بأن يجمل فى طلب الخراج، وأن يراعى الجانب الإنسانى الذى يتميز به الإسلام، يقول كرم الله وجهه : "إذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوة شتاءً ولا صيفاً، ولا رزقاً يأكلونه، ولا دابة يعملون عليها، ولا تضربن أقدامهم سوطاً واحداً فى درهم، ولا تقمه على رحلة فى طلب درهم، ولا تبع لأحد منهم عرضاً (متاعاً) فى شئ من الخراج، فإنما أُمرنا أن نأخذ منهم العفو، فإن أنت خالفت ما أمرتك به، يأخذك الله به دونى، وإن بلغنى عنك غير ذلك عزلتك، قال الوالى: إذن أرجع

---

(٢٤) يراجع كتاب الأستاذ نظمى لوقا: عمر بن الخطاب .. البطل والمثل والرجل، ط دار الحرية، ١٩٨٦م ، و أيضاً كتاب الدكتور إدوارد غالى الذهبى: النموذج المصرى للوحدة الوطنية، ط مكتبة الأسرة ١٩٩٨م.

(٢٥) د. جعفر عبد السلام: الإسلام وحقوق الإنسان، ص١٩٧ .

إليك كما خرجت من عندك، فقال له الإمام على كرم الله تعالى وجهه: وإن رجعت كما خرجت"[٢٦].

وأثر عنه كرم الله وجهه – أيضاً أنه قال عن هؤلاء "إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ، ودماؤهم كدمائنا".

وحدث أن يهودياً شكاه لعمر بن الخطاب – وكان قاضياً فى عهد أبى بكر الصديق – فقال له عمر: قم يا أبا الحسن فاجلس بجوار خصمك؛ ففعل وعلى وجهه علامات التأثر، فلما فصل فى القضية قال لعلى: أكرهت أن تساوى خصمك: قال: لا؛ لكنى تألمت لأنك ناديتنى بكنيتى؛ فلم تسونى باليهودي؛ فخشيت أن يظن أن العدل قد ضاع بين المسلمين.

حقاً إنها صور مشرقة من أخلاق هذا الدين الخاتم، ولا غرو في ذلك، فالله سبحانه وتعالى قد ختم بها الرسالات وفي ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

---

(٢٦) أبو يوسف: الخراج ص ١٤، ١٥ (بتصرف).

الفصل الثالث

شبهات حول سماحة الإسلام

الشبهة الأولى : انتشار الإسلام بحد السيف :

يرى القائلون بهذه الفرية أن الإسلام انتشر بحد السيف، وأن أتباعه عملوا على نشره دون النظر إلى الوسيلة ومدى تعارضها مع الإنسانية وحقوق الإنسان، عملاً بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة، وفيما يلى نبين خطأ هذه الفرية، وكذب أصحابها، ونفضح نواياهم السيئة.

إن القرآن الكريم: مليئ بالتوجيهات الربانية التى تنادى بحرية العقيدة فى الإسلام فيقول: "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فيكفر " [الكهف: ٢٩] وكذلك فإن القرآن وضع الأسس التى ينبغى أن تكون عليها الدعوة إلى الله يقول سبحانه: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة" [النحل:١٢٥] والنبى صلى الله عليه وسلم نجده فى جميع حروبه يوصى جنوده بألا يقتلوا طفلاً ولا شيخاً ولا امرأة ولا راهباً.

ولم يثبت أنّ النبى ﷺ أكره أحداً من المشركين على الدخول فى الإسلام رغم تمكنه من المشركين- وخاصة يوم الفتح - ولو كان ذلك من شأنه لأعمل فيهم السيف، ولعل مجرد بقاء الكنائس والمعابد حتى الآن لدليل على تسامح الإسلام الذى ساد العالم شرقاً وغرباً، ولو أراد المسلمون استئصال اليهود أو النصارى ما كان ذلك عليهم بعسير.

تقول المستشرقة الألمانية "زيغريد هونكة" فى كتابها "الله مختلف تماماً" "لقد لعب التسامح العربى دوراً حاسماً فى انتشار الإسلام، وذلك

على العكس تماماً من الزعم القائل بأنه قد انتشر بالنار والسيف وقد أصبح هذا الزعم من الأغاليط الجامدة ضد الإسلام"(٢٧).

أما توماس أرنولد فيقول "إذا نظرنا إلى التسامح الذى امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين فى صدر الحكم الإسلامى، ظهر أن الفكرة التى شاعت بأن السيف كان العامل فى تحول الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق"(٢٨).

ثم يواصل قائلاً "إن القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام قد اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات المسلمين لشاهد على هذا التسامح، ومن المعروف أن جيوش المسلمين لم تذهب إلى جنوب آسيا أو غرب أفريقيا، إنما انتشر الإسلام هناك عن طريق التجار والمتصوفة من المسلمين بعد أن رأى الناس عملياً سلوكهم وأخلاقهم وحسن معاملتهم، فأقبلوا على الإسلام دون أن يرغمهم أحد على الدخول فيه.

وحسب ما يرى الأستاذ العقاد فإن نظرة عابرة إلى البلاد الإسلامية لتكفى لتقرير وقائع التاريخ فى هذه المسألة، فإن أكثر البلاد الإسلامية عدداً هي أقل البلاد غزوات إسلامية، وإن المسلمين لم يحاربوا قط فى صدر الدعوة إلا مدافعين أو دافعين لمن يصدون الدعوة بالموعظة الحسنة من ذوى السلطان، وكذلك كانت وقائعهم مع مشركى

---

(٢٧) نقلاً عن د. محمود حمدى زقزوق الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٢م ص ٤٥، ٤٦ ..

(٢٨) د. محمد إبراهيم الجيوشى التسامح فى الإسلام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٩٩٦م، ص٥٧ .

الجزيرة العربية كما كانت وقائعهم مع الفرس والروم .. وقبل غزو فارس بزمن طويل كان كسرى يبعث بعوثه فى طلب صاحب الدعوة الإسلامية حياً أو ميتاً، لأنه خاطبه داعياً إلى الإسلام.

إن من لا يفهمون الإسلام فهماً شمولياً صحيحاً يحسبون أن الإسلام يوجب القتال الدائم على المسلم كما يوجب الصلاة والصيام وسائر الشعائر المفروضة، ويعدون هذه الفريضة بدعة بين الفرائض الدينية أو بين الفرائض الإنسانية التى قررتها دساتير الأخلاق فى أمور العقائد على الإجمال، وحقيقة الأمر أن الأساس الأخلاقى الذى قامت عليه فريضة الجهاد – فضلاً على الأساس الدينى – يستقيم مع كل أساس سليم لكل اعتقاد قويم.

فماذا تقول شريعة الأخلاق فى الواجب على الإنسان نحو عرضه؟ أن الإسلام لا يقول شيئاً غير الذى يقوله هداة الوطنية والشرف حين ينكرون على المرء أن ينكص عن الجهاد فى سبيل وطنه وكرامته وعرضه، ويعيبون عليه أن سالم من يقاتلونه فى سبيل حريته وحرية بلاده، وليس بالدين الصالح للإيمان به دين ينزل بحرية الضمير عن مرتبة الحريه فى الموطن والمعاش[٢٩].

الشبهة الثانية: لقد جاء المسلمون كمستعمرين :

يروج بعض الحاقدين على الإسلام أقوالاً لا يصدقها عقل ولا يؤيدها نقل وهم يحاربونه بكل ما أوتوا من قوة.

---

(٢٩) عباس محمود العقاد: ما يقال عن الإسلام، ص١١٠ (بتصرف) ط دار الرشاد الحديثة، ، ب.ت.

يقولون بأن فتح البلاد يعتبر استعماراً لها، وذلك أمر عجيب، فالاستعمار كما هو معروف على مر التاريخ هو استغلال واستنزاف لثروات البلد المحتل دون النظر إلى أهل هذه البلاد أو إلى مدى حاجتهم إلى تلك الثروات، وهذا ما فعلته بريطانيا فى مصر، وفرنسا فى الجزائر، وإيطاليا فى ليبيا، وهذا لم يكن من شأن الفتوحات الإسلامية.

وإذا ما عقدنا مقارنة بين الاحتلال البريطانى لمصر والفتح الإسلامي للأندلس يتبين لنا الفرق واضحاً جلياً بينهما، فقد عمل الاحتلال البريطانى منذ أول يوم جاء فيه إلى مصر على استنزاف ثرواتها، بينما جاء الفتح الإسلامى إلى أسبانيا فجعلها جنة فيحاء، فكانت أول بلد أوروبي - وربما فى العالم - تضاء شوارعها ليلاً فى الوقت الذى كانت أوروبا تعج بالخرافات الكنسية،أما من الناحية الشرعية فقد رفض الإسلام الجهاد بهدف الحصول على الغنائم فيقول تعالى: ﴿ تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾ [الأنفال:٦٧]، وقد سئل النبى ﷺ عن رجل يريد الجهاد فى سبيل الله وهو يبتغى عرضاً من الدنيا - أى يبتغى الحصول على الغنائم - فقال "لا أجر له" وكرر ذلك ثلاث مرات".

وكذلك فإن القول بأن الفتوحات الإسلامية كانت توسعات استعمارية ذات طابع اقتصادى يعد عملية إسقاط لما فعله الاستعمار الغربى بالبلاد الإسلامية فى العصر الحديث على فتوحات المسلمين فى السابق وبينهما بون شاسع !! ولذلك نجد فى التاريخ والسير أن خالد بن الوليد عقد معاهدة مع بعض أهالى المدن المجاورة للحيرة سجل فيها نصاً يقول : "فإن منعناكم (أى قمنا بحمايتكم) فلنا الجزية وإلا فلا" وقد

حدث بالفعل أن قام المسلمون برد الجزية إلى أهل المدن المفتوحة فى الشام حينما شعروا أنهم غيرقادرين على توفير الحماية اللازمة لهذه المدن وكان ذلك فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب حينما حشد الإمبراطور هرقل جيشاً ضخماً لحرب المسلمين، وشغل المسلمون حينذاك بالمعركة مع جيش الروم، وكتب القائد العربى لأهل هذه المدن "إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع، وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم"(٣٠)، إذن فلا داعى لما يقول المغرضون الذين لا يبرحون يهاجمون الإسلام فى ميادينه وبين أهله.

الشبهة الثالثة : حد الردة انتهاك العقيدة :

المرتد فى الشرع : هو الراجع عن دين الإسلام، وقد تكون بالألفاظ أو الأفعال أو الاعتقادات، فتكون باللفظ حين يتكلم المسلم بكلمة الكفر كسب الله ورسوله، وبالأفعال بأن يأتى المسلم عملاً يدل على استخفافه بالدين، وقد يكون بالاعتقاد بأن يعتقد المسلم أموراً باطلة متناقضة لما عرف من الدين بالضرورة مثل إنكار وجود الله أو اليوم الآخر، وأن محمداً ليس خاتم النبيين.

ويشترط لوقوع الردة أن يكون المرتد عاقلاً مختاراً، فلا تعتبر ردة الصبى والمجنون ولا السكران الذى زال عقله بالسكر ولا المكره إذا كان قلبه مطمئناً بالإيمان.

---

(٣٠) الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك (مرجع سابق) ص ٤٩ .

وعقوبة المرتد القتل لقوله ﷺ: "من بدل دينه فاقتلوه" وهذا الحكم يشمل الرجل والمرأة عند الجمهور، أما الحنفية فيرون أن المرتدة لا تقتل بل تحبس حتى تتوب، وعن إمهال المرتد قبل قتله قال الجمهور بوجوبه، ويعرض الإسلام عليه لعله يرجع عن ردته، فإن أبى قُتل، وقال الحنفية الإمهال ليس واجباً، بل مستحباً"[٣١].

إن الذين يعيبون على الإسلام تطبيقه لحد الردة قد تغافلوا حقيقة مهمة جداً، وهى أن جريمة "الخيانة الكبرى" توجب الإعدام فى الكثير من دول العالم، هذا عن خيانة القواعد والقوانين الوضعية، فما بال هؤلاء لا ينطقون عند تسفيه الشرائع الإلهية.

إن قتل المرتد فى الشريعة الإسلامية ليس لأنه ارتد فقط ، ولكن لإثارته الفتنة والبلبلة وتعكير النظام العام فى الدولة الإسلامية، أما إذا ارتد بينه وبين نفسه دون أن ينشر ذلك بين الناس ويثير الشكوك فى نفوسهم، فلا يستطيع أحد أن يتعرض له بسوء فالله وحده هو المطلع على ما تخفى الصدور"[٣٢].

(٣١) د. عبد الكريم زيدان: أصول الدعوة، الرسالة ١٩٨٧، ص٢٨٩ .

(٣٢) الإسلام فى مواجهة حملات التشكيك(مرجع سابق)، ص ١٣٠.

الفصل الرابع

من شهادات غير المسلمين

والآن نود - بشئ من الإيجاز - أن نورد شهادات غير المسلمين حول سماحة هذا الدين الحنيف ، وهى بلا شك أدلة دامغة واضحة لا تحتمل التأويل والتشكيك، وإنما هى بمثابة براهين جلية، لأنها ما نبعت من لدن المسلمين أنفسهم، ولكن قالها غيرهم ممن أعجبوا بهذا الدين وعظمته وسماحته على مر العصور والقرون.

بعد سنوات قضاها القائد الفرنسى الفذ "نابليون بونابرت" فى محاولة يائسة للهيمنة على مقاليد الأمور فى كثير من بقاع الأرض، ومنها بعض الدول الإسلامية، جال بخاطرة تساؤل أرّقه وأجهده : ما هو السبب الفعال فى الانتشار السريع للدين الإسلامي، يقول: "إننا إذا طرحنا جانباً الظروف العرضية التى تأتى بالعجائب، فلابد أن يكون من وراء انتشار الإسلام سر لا نعلمه، وأسباب مجهولة مكنته من الانتصار السريع على المسيحية، وربما كانت العلة المجهولة أن هؤلاء القوم الذين وثبوا فجأة من أعماق الصحارى قد صهرتهم قبل ذلك حروب داخلية عنيفة وحماسة غلابة، وربما كانت هذه العلة شيئاً آخر من هذا القبيل"(٣٣).

ولا شك أن بونابرت - وهو القائد الذى أفرط المؤرخون والساسة فى وصف ذكائه ودهائه، قد غفل - وربما تغافل - عن حقيقة كبرى، وهى أن لسماحة الإسلام دوراً كبيراً فى انتشاره بين الشعوب

---

(٣٣) د. أحمد الحوفى: سماحة الإسلام، ص ٨٥، (بتصرف).

على اختلاف ثقافاتها ومشاربها، والشهادات حول هذا الموضوع كثيرة بحيث يضيق المقام عن ذكرها، لذا سنكتفى بذكر نزر يسير منها وكل هذه الشهادات جاءت من الغرب وإليه ترجع، فتلك بضاعتهم ردت إليهم.

ويرى " غوستاف لوبون " أن أهم ما تميز به المسلمون الفاتحون هو دماثة خلقهم وتسامحهم الذى فاق كل الحدود، وكان لذلك كبير الأثر على البلاد التى فتحوها، فيقول: "إن اظهر ما يتصف به الشرقيون – المسلمون – هو أدبهم الجم وحلمهم الكبير وتسامحهم، ووقارهم فى جميع الأحوال، وقد أورثهم إيمانهم طمأنينة روحية، فى جين تورثنا أمانينا احتياجاتنا المصنوعة قلقاً دائماً يبعدنا عن تلك السعادة"(٣٤).

أما " روبرتسون " فيرى أن المسلمين تفردوا دون غيرهم بحرصهم الكبير على دينهم وتوصيله لكل من يحيا على ظهر الأرض فى إطار من السماحة والمشروعية، يقول: "إن المسلمين وحدهم هم الذين جمعوا بين الغيرة على دينهم وروح التسامح نحو أتباع الديانات الأخرى، وأنهم مع امتشاق الحسام تركوا لمن لا يرغب حرية التمسك بدينه"(٣٥).

كما شهد البطريق "عيشوبايه" بأن "العرب الذين مكنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون: "إنهم ليسوا أعداء

---

(٣٤) مجلة منار الإسلام، الإمارات – جمادى الأولى – سنة ١٤١٨م، ص١١٧ وما بعدها.

(٣٥) المرجع السابق.

للنصرانية، بل يمتدحون ملتنا، ويقرون قديسنا، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا"[٣٦].

ويقرر الإنجليزي السير "توماس أرنولد" في كتابه القيم " الدعوة إلى الإسلام " حقيقة واضحة وهى أن القبائل المسيحية قد اعتنقت الإسلام عن رغبة جامحة لا عن إرغام وإكراه فيقول: "لقد عامل المسلمون الظافرون العرب المسيحيين بتسامح عظيم منذ القرون المتعاقبة، ونستطيع أن نحكم بحق أن القبائل المسيحية التى اعتنقت الإسلام قد اعتنقت عن اختيار وإرادة حرة، ، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون فى وقتنا هذا بين جماعات المسلمين الشاهد على هذا التسامح"[٣٧].

ثم يبرهن على ذلك بقوله: "لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن اضطهاد وظلم قصد منه استئصال الدين المسيحى، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التى أقصى بها فرديناند .. دين الإسلام من أسبانيا، أو التى جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتى مذهباً يعاقب عليه متبعوه فى فرنسا، أو بتلك السهولة التى ظل اليهود مبعدين عن إنجلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة.

ومن وجهة نظره الخاصة يرى "توماس أرنولد" أن بقاء دور العبادة المسيحية دليل "واضح على ما يقوله: "ولهذا فإن مجرد بقاء

---

(٣٦) الشيخ محمد الغزالى: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام (مرجع سابق) ص ٤١ بتصرف.

(٣٧) د. أحمد الحوفى: سماحة الإسلام، الهيئة العامة للكتاب، ص٨٣، ط ١٩٩٧م.

الكنائس حتى الآن ليحمل فى طياته الدليل القوى على ما قامت عليه سياسة المسلمين فى الدول الإسلامية بوجه عام من تسامح"(٣٨).

أما "زيغريد هونكه" "فقد نقلت فى كتابها" شمس العرب تسطع على الغرب" مقولة لأحد ملوك الفرس الذين بهرتهم سماحة هذا الدين، ويسمى "كيروس" يقول: إن هؤلاء المنتصرين لا يأتون كمخربين يدمرون البلاد ويقتلون العباد وينشرون الفساد"(٣٩).

ويرى "القس ميشو" أن القرآن له الأثر الكبير فى أهله، فقد أمرهم بالجهاد وفى نفس الوقت أوجب عليهم التسامح فى كل الأحوال، كما يرى أنه من العار على الشعوب المسيحية ألا تتعلم السماحة من المسلمين فيقول: "إن القرآن الذى أمر بالجهاد متسامح نحو أتباع الأديان الأخرى وقد أعفى الرهبان والبطارقة وخدمهم من دفع الجزية وحرم قتلهم لعكوفهم على العبادة".

ثم يواصل قائلاً: " .. ومن المؤسف ألا تقتبس النصرانية من المسلمين التسامح الذى هو آية الإحسان بين الأمم واحترام عقائد الآخرين، وعدم فرض أى معتقد عليهم إكراهاً"(٤٠).

وقد قارن "ميشو" فى كتابه "سماحة دينية فى الشرق" – بين الفتح الإسلامى للقدس فى عهد عمر والاستيلاء المسيحى على القدس، كما عاب على المسيحيين أنفهسم عدم تحليهم بروح التسامح فقال: "لما استولى عمر على مدينة أورشليم لم يفعل بالمسيحيين ضرراً مطلقاً؛

---

(٣٨) منار الإسلام – شعبان ١٤١٨هـ – ص١١٧.

(٣٩) منار الإسلام – جمادى الأولى سنة ١٤١٨هـ. ص ١١٧ وما بعدها.

(٤٠) المرجع السابق.

ولكن لما استولى المسيحيون قتلوا المسلمين ولم يشفقوا، وأحرقوا اليهود إحراقاً .. ولقد أيقنت من تتبعى للتاريخ أن معاملة المسلمين للمسيحيين تدل على ترفع فى المعاشرة عند الغلظة، وحسن مسايرة ولطف ومجاملة، وهو إحساس لم يشاهد فى غير المسلمين إذ ذاك ، خصوصاً أن الشفقة والرحمة والحنان كانت إمارات ضعف عند الأوروبين، وهذه حقيقة لا أرى وجهاً للطعن فيها"(٤١).

وكان للتسامح الإسلامى فى البلدان المفتوحة أثر كبير فى انطباعات الشعوب المجاورة لهذه البلاد، حتى إن أغلبها تمنت الفتح الإسلامى، ووجدت فيه المجأ والملاذ، يقول "ترومان بينزا": "لما فتح العثمانيون القسطنطينية كان أكثر الشعب المسيحى فى عشية الكارثة ينفرون من أى اتفاق مع كنيسة روما الكاثوليكية أشد من نفورهم من الاتفاق مع المسلمين، ومازال الناس يرددون دون الكلمة المشهورة التى نطق بها رئيس دينى فى بزنطية فى ذلك الحين وهى: "إنه لخير لنا أن نرى العمامة التركية فى مدينتنا من أن نرى فيها تاج البابوية"(٤٢).

وقد شهدت أوروبا نفسها صوراً مشرقة من تسامح المسلمين فتعامل المسلمون – كدأبهم – مع أهل الأندلس معاملة طيبة ، وكفلوا لهم حرية العقيدة، بل قلدوهم الوظائف الرفيعة، والمناصب العليا.

---

(٤١) مختارات من سماحة الإسلام ، د. أحمد الحوفى (بتصرف) ص ٨٣ وما بعدها.
(٤٢) هذا ما نقله د. أحمد الحوفى عن كتاب "الأمبراطورية البزنطية" لفورمان بيتز.

يقول الكونت "هنرى كاسترى": فى كتابه "الإسلام": وإذا انتقلنا من الفتح الأول للإسلام إلى استقرار حكومته استقراراً منظماً رأيناه أكثر محاسنة، وأنعم ملمساً، فما عارض العرب قط شعائر الدين المسيحى؛ بل بقيت روما نفسها حرة فى المراسلات مع الأساقفة الذين كانوا يرعون الأمة الخالية.

ثم ينقل عن "دوزى" قوله: "لقد أبقى المسلمون سكان الأندلس على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف، حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء وكثير منهم تولى قيادة الجيوش، وتولد عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأمة الأندلسية إلى المسلمين، وحصل بينهم زواج كثير.

"وكم من أندلسي بقى على دينه، ولكن أعجبته حلاوة التمدن العربى، فتعلم اللغة وآدابها، وصار القسس يلومونهم على ترك ألحان الكنيسة، والتعلق بأشعار الظافرين، وكانت حرية الأديان بالغة منتهاها، لذلك لما اضطهدت أوروبا اليهود لجأوا إلى خلفاء الأندلس فى قرطبة؛ لكن لما دخل الملك كارلوس سرقسطة أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود ومساجد المسلمين، ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية ما دخلوا بلاداً إلا أعملوا السيف فى يهودها ومسلميها، وذلك يؤيد أن اليهود إنما وجدوا مجيراً وملجأ فى الإسلام، فإن كانت لهم باقية حتى الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين"[٤٣].

يقول "ميخائيل الأكبر" بطريق أنطاكية بعد أن استعرض سلسلة الاضطهادات التى وقعت على أيدى هرقل ورجاله: "وهذا هو السبب فى

---

(٤٣) د. أحمد الحوفى: مرجع سابق ص٨٣، وما بعدها بتصرف.

أن إله الانقام الذى تفرد بالقوة والجبروت والذى يديل دوله البشر كما يشاء – فيؤتيها من يشاء ويرفع الوضيع – لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا، وسلبوا أديارنا فى كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقاب فى غير رحمة ولا شفقة، أرسل أبناء إسماعيل (المسلمين) من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم.

".. ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التى وجدت فى حوزتها، ومع ذلك لم يكن كسباً هيناً أن نتخلص من قسوة الروم، وأن نجد أنفسنا فى أمن وسلام"(٤٤).

يقول " أدوالدويلى" أحد رهبان القديس "دييس" القسيس الخاص للويس السابع فى الحرب الصليبية الثانية ١١٤٨م – يقول عن إسلام ثلاثة آلاف صليبي وانضمامهم إلى جيوش المسلمين: "لقد جفوا إخوانهم فى الدين، كانوا قساة عليهم، ووجدوا الأمان بين الكفار (يعنى المسلمين) الذين كانوا رحماء عليهم، ولقد بلغنا أن ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضموا بعد أن تقهقروا إلى صفوف الأتراك .. آه ... إنها لرحمة أقسى من الغدر، لقد منحوهم الخبز، ولكنهم سلبوهم عقيدتهم، ولو أن من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحداً من بينهم على نبذ دينه، وإنما اكتفوا بما قدموه لهم من خدمات"(٤٥).

أما شهادة الدكتور " فيليب حتى" فهى شهادة من نوع خاص لسببين أولهما: أنه مسيحى وثانيهما: أنه عربى تجرى فى عروقه دماء العروبة، فهو يمتدح الإسلام ويرى جدارته باستيعاب كل من يعيش تحت سمائه فى إطار من العدل والتسامح، فيعرف الإسلام بأنه "حضارة

---

(٤٤) نقلاً عن الدكتور محمد إبراهيم الجيوشى مرجع سابق ص٤٧ (بتصرف)

(٤٥) المرجع السابق.

عامة شاملة تنظم كل من يعيش تحت سمائها فى حرية وصفاء ، ويعيش غير المسلمين مع المسلمين على قدم المساواة تربطهم روابط المحبة والأخوة"(٤٦).

وبعد ...

فهذا .. نزر يسير من شهادات غير المسلمين من وغيرهم من الذين وقفوا على حقيقة هذا الدين السمح، بعظمته التى لا تضاهيها عظمة، وبإنسانيته التى ليس لها حدود .. فلم يستطع هؤلاء أن يكتموا شهادتهم أو أن يسلبوه حقه .. فأنطقهم الله الذى أنطق كل شئ.

ومعذرة إن كنت أكثرت من الاقتباسات أو أطلت فى بعضها.

فتلك أقوالهم ... وهذه بضاعتهم

---

(٤٦) منار الإسلام شعبان ١٤١٨هـ (مرجع سابق) ص١١٧، وما بعدها.